حول «ضباب وبروق» لخليل حاوي

الشعر والشاعر في قصيدة ...

بقلم ايلي حاوي

ان بلية الشعر المعاصر بذاته هي أيسر من بليته بالآخرين من أمناء واوصياء عليه ، وادعياء يطلق أحدهم عبارات استظهرها عن ظهر قلبه وهي لا تعدو القدح والمدح بلا مبرر ، وبعض الاحكام العامة والمطلقة يجهض بها عقدة غروره . ولا قبل للنقد ، من بعد ، بتعظيم حقير ولا بتحقير عظيم لان الآثار تحمل فيمنها بذاتها . وهل كتب على الشاعر ان يكون كزعماء الاحياء ، ممن يؤلفون الانصار والمحاسيب والدعاة ، ام كتب عليه ان يكون العوبانا يمالىء هذا وذاك وذلك ويتنقل في الولاء بين النزعات والاحزاب ، فلا يثبت على لون ولا يقيم على عقيدة . وفيما نحسب ان الشاعر ينجح في الناس بشعره نجد ان ادعياء الشعر ينجحون في الناس بمكرهم وغدرهم . هؤلاء هم قوّادو الكلمة ، مرتزقة يلجون بجوازات مزورة وينسلون كالداء ويبعثون عند كل امر تفوح منه رائحة المغانم . ومن يحمل صليب الابداع يبقى معزولا تحدق به الغربة من كل جانب ، يشاهد غلبة الباطل بصمت وحزن ، ولا منجى له ، يفزع اليه لان عالم السياسة هو اعظم تآكلا ونفاقا وتهتكا . الزعماء عبيد للاجنبي وأسياد على أبناء بلادهم ، يزجون الزمن بالترهات والاباطيل ، وامتهم تقعي مخذولة في ذيل الحضارة ، تأكل فتات موائد الشعوب وتتمسح على اعتابها . ذاك سجن طرح فيه الشاعر الكبير ، لا يلهيه عنه لهو ولا يغويه مال او أية حال من الاحوال . الناس يغدون في طلب رزقهم يفرحون بالكسب والعافية والعائلة ، والسلامة هي غايتهم القصوى . اما الشاعر فيحدق بهم بحدقة أخرى ، يتساءل عن جدوى سعيهم الاليف وارتزاقهم وتناسلهم بحكم العادة ، ويدرك ان الانسان وجد لغاية اعظم ، انه ينتمي الى امة وحضارة وتاريخ ، وان الزمن اعطي للانسان ليفعمه بالفتوح ، وهي الوحيدة التي تمنحه العزاء وتقنعه بان الحياة جديرة بان تعاش وان يكافح الانسان دونها . وبينما يقتصر امر الناس على سلامة ، لا يقر للشاعر قرار حتى يشعر انه مصان الكرامة ، وكرامته هي في ذاته بقدر ما هي في أمته ، لان الشعر هو ضمير الامة والعصر . او يكون الشعر عرضا للمظاهر والاحداث واذعانا لها ، يعيدها الى ذاتها ، بدلا من ان يعدّل فيها ويبدّل ويصوغها صياغة جديدة ينفخ فيها من أنفته وكبريائه وطموحه ، او انه يكون رصفا للالفاظ وتماجنا في العبث بها ؟ الشاعر الكبير هو الشاهد الوحيد المعصوم عن الخطأ ، لا يفوته الواقع وان كان يسمو عليه ويتخطاه ويبدع من دونه المثال الجديد الذي تتجسد به عظمة الانسان غير المكتفي بان يكون طاعما من معجن الحياة وكاسيا من خزائنها ومائتا على دروبها كما تسقط الاوراق الجافة الصفراء. الشاعر الكبير هو قبل اي شيء ، الانسان الكبير الذي يصعّد ، وهو يحمل صخرة العالم على كتفيه كسيزيف . ولقد تولى الى غير رجعة زمن الشاعر المتهتك ، المخذول ، المرتجل الذي تنزو عواطفه وتسفه حقائق الوجود وتحقر من شأنها . وهذا الزمن هو زمن الشاعر الشاهد والشهيد ، النبي المرحوم او المصلوب او المقطوع الرأس ، انه الشاعر الرسول .

ولم تراه قابعا في المقهى ، يصم الضجيج أذنيه ويعمي دخان التبغ بصيرته :

ضجة المقهى ، ضباب التبغ
مصباح واشباح يغشيها الضباب
ويغشّي رعشة في شفتي السفلى
يغشي صمت وجهي ووجومه
أفرخ البوم
ومات النسر
في قلبي الذي اعتاد الهزيمة

لقد فرّ الشاعر الى المقهى ليفر من نفسه ويأسه ، توالت عليه الهزائم وافتقد عزمه ، مات في قلبه نسر القوة والعنفوان وأفرخ بوم الشؤم والهزيمة . انه فاقد الرجاء والعزاء والكفاح فقد صلبه وجناحيه وارتمى في ساحة الفشل اشلاء متناثرة . النسر هو الشاعر في حلمه العظيم المحلق فوق صغائر الحياة ، المتحرر من براثن القدر ، يطيف فوق العالم وكأنه سيد العالم ، له جناحا الحرية . اما البوم فهو الذي ينعب على اطلال الواقع وانقاضه ، عشش في ضمير الشاعر عندما استبد به يقين العبث ، وأدرك انه لا سبيل الى الكرامة والكبرياء او لا سبيل الى انهاض الحياة من مستنقعها الى ذروة البطولة . وهل ان الشاعر استسلم بيسر وهاض جناحه لاول زعزع اعترضه ، بل انه كافح ونافح وتردى ثم نهض وسقط من جديد وجمع اشلاءه ورفع جبينه ، لكن الهاوية ابتلعته وخلص الى يقين التخاذل والفشل . انها الهزيمة ، بعد هزيمة ،بعد هزيمة ، حتى الفها وأنس صحبة البومة ، لا تبرح ولا تغادر كانها صنو الغراب الذي لازم ادغار الن بو عندما ماتت عنه حبيبته اليونور. او ليس الشعر هو هكذا صراع ونتازع بين الواقع والمثال ، بين بومة الواقع الشمطاء القصيرة الجناح والنسر الكبير الذي يأنف من الحضيض ولا يطرب الا للاعالي . وهل ان ما نفثه الشاعر هنا هو

شعر ؟ انه ليس شعراً بل اعتراف وحشرجة ، همس النفس لذاتها، انفاس محتضر مطروح في قاع الهزيمة . وكيف اهتدى الشاعر الى هذين الطائرين دون سواهما ؟ لقد ساقه حدسه اليهما ، اذ الانسان التافه المصير هو الذي يتلهى بصداع البلبل في روضة الحيـاة الكاذبة وليس للانسان الكبير الا قطبان يتجاذبانه : الهوان واليأس والعنفوان والطموح . بلبل السلامة والامان يصدح للخاملين ، وذوو الكبرياء يشد بهم جناح النسر او تنعب على رؤوسهم بومة العار . ولقد تكشف التجسيد الفني بذلك وبلغ اقصى غايته بالتماعه موحية ، موجزة لها يقين الحقيقة الشعرية التي يغني حضورها عما دونه، لا تعوزها بينه ولا برهان ولا يقتضيها تفصيل او تعليل ، انها الحقيقة وحسب . وهي لم تنخدع بالمكابرة ولم تتنكر للواقع بل اعترفت به وسالت منها دماؤه بصمت . أو ليست المكابرة هي خطيئة العرب الكبرى ؟ يعفرون ويداسون تحت نعال الغزاة ثم يرفعون هامتهم في الندوات والمحافل فيما يفوح النتن من جيفهم . الاعتراف بالهزيمة وادمان الذل هو عنوان الصدق للنفوس الكبيرة التي لا تخاف من ان ترى نفسها عارية وعليها دمغة العار وندوب الصغار . او لم يقل المتنبي من قبل :

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

الجبان هو المكابر ، والشجاع هو الذي يحدق بالواقع ويتفرس فيه وان نولاه بالرعب والقنوط . ولعل ولوج الشاعر الى المقهى نم ، منذ البدء ، على انه يتردى تحت وطأة مصيره المخذول ، يسعى الى ان يحيا حياة التافهين ، يتحدث حديثهم يمضغ تبغ التفاهة كما يمضغون ، الا ان شعور الفشل والحزن يلازمه ويبوح بان البوم يقطن بين جدران صدره .

واذا كانت الجمالية في الشعر تخلب باللفظة والصورة لذاتهما، لجمالهما الخاص ، فان الشاعر أدرك ، ثمة ، جمالية حية ، انسانية اذ أدرك روعة الصورة والعبارة وعمق المعاناة وصدقها في آن معاً . وقد شاعت في الشعر منذ حين الصورة المخلعة ، الطائشة ، المعتوهة، التي تدهش وتغرر حتى بات بعض المتدرجين الاغرار في النقد لا يحتفلون الا بها ، ولم يفطنوا الى انها فقاعة جمالية خلابة او كنار الاعياد تتوهج وتدوّي وتنطفىء في لحظة تدلهم أثرها الظلمة .

★ ★ ★

وفي تلك اللحظة او في ذاك اليقين من اليأس يتحسر الشاعر على ما فاته في ماضيه يوم كان يميت ذاته ويكبت شهواته ويعتصم في سبيل المثل العليا والكفاح ، فاذا الجهاد كله وهم وسراب ، وكأن الشهداء ماتوا ميتة العبث ، سفحت دماؤهم بلا طائل . ولقد كان الكفاح غروراً ينجلي عن الخيبة والفشل .

طالما جعت افترشت الجمر
اتلفت الليالي
أتقي ما أشتهيه وأهاب
وأطيل الجوع حتى ينطوي الجوع
على موت الرغاب
باطل ما يخدع العزم
ويدمي العزم
يغريه ، فيجتاح الاعالي
وعلى ما غار في صمت التراب
من بطولات الضحايا
يرتمي ظل غراب

المجاهد يجوع ولا يشبع جوعه ، وتحرّه الشهوة ولا ينساق اليها ، يحجم عنها ويكبتها حتى تتآكل وتفترس ذاتها بذاتها ، لان امر الجوع والشهوة هو من الامور الدنيا الساقطة . ولقد انفق الشاعر عمره زاهداً ، متموتاً ، ليتفرّغ الى قضايا المصير ، الى الصراع لتحقيق حرية شعبه وقيادته الى النصر . كان يفرح بالموت في سبيل الفكرة ويدعو الى الشهادة لان الكرامة الانسانية لا تصان الا بالدم المراق، الا ان غمرة الاحداث انجلت الآن، واختنى الاسى ورزح اليأس، والذين ماتوا تصعدت ارواحهم في الهباء ، اغتيلوا ودسّوا في التراب – لعله رمل سيناء او تراب الجولان – كأنما أصابهم قدر من أقدار الشر والشؤم . لقد ماتوا في سبيل اللاشيء ، لم يؤدوا ثمن النصر ولم يحوزوه . وبيّن اليأس الطارىء او المستبد بالشاعر تملكه بعد هزيمة حزيران ، حيث تساقط شهداء العرب وطمسوا في الرمال بلا غاية وبلا جدوى . وقد كان بوسع الشاعر ان يؤدي الفكرة صريحة ، عارية بمثل ما شرحناها به ، الا ان للشعر تكنيته التي لا يوفي الى غايته الا بها وهي الصورة الايحائية التي تحشد المشاعر حشداً ولا تحددها تحديداً . وظل الغراب لا يوضح معنى وانما يفعم النفس بمشاعر الخذلان والاستسلام واليأس ، تتراءى عبره هامة الشاعر او الانسان العربي المنحنية ، المقهورة ، ومعاناته الحارة لباطل الجهاد والكفاح .

★ ★

وفي المقطع اللاحق ، يبدو الشاعر مبحراً في عالم التأمل ، يتفكر بمصير شعبه ، يغرق به الى اللانهاية ، غافلاً عما يدور حوله ، منكرساً لحل معضلته كأنه الصوفي الذي سقطت عن حواسه وطأة العالم والانشغال بهموم الرزق والعيش والنجاح والثروة . والبطل القومي جرى على هذا الغرار في الاسطورة ، تنحلّ ذاته عنه وتتحد في ذات المجموع كله ، لا يتفكر بمصيره الخاص ولا يطلب النجاة لنفسه وحدها ولا يختلس سوانح الحياة ، بل تبرم في وجدانه مشكلة شعبه وقومه ، تأخذ عليه انفاسه وتشغله ليل نهار ، وتخترمه كالداء، فيتفرغ لها ، يدور في شباكها ويتعثر في انشوطتها ويسفح عمره في التأمل بها حتى ينفتح له فيها وجه اليقين والنصر :

طالما ابحرت حيث المبحر الساكن
لا يطوي بحاراً ويعاني
حيث لا يرتعد الموج لايقاع الثواني
حيث لا يشتد هول البحر
حتى يمحي نجم وصبح ومواني
حيث لا ينشق موج الغيم
عن وهج البروق
غابة سوداً وادغالاً
يدميها الحريق

والمبحر الساكن هو الشاعر المغرق في تأمله ، لا يخوض في بحر الحياة ، ويتصارع لينال مكسباً او مأرباً من دون الآخرين وهو لا يحفل بالزمن الذي يمرّدونه ، لا يرتعد لنزوح العمر عنه دون ان يكسب به جاهاً او رزقاً كالآخرين . العمر لم يعد له شأن ولم يعد الشاعر يحترز عليه كالآخرين الذين تشغلهم مكاسبهم الخاصة عن التفرغ للهموم العامة ويتوهمون انها سفح للعمر وهدر له في الخسارة والفشل . والحكيم العاقل بالنسبة اليهم هو الذي يختلس كل سانحة ليفيد منها خيراً لنفسه . وكما قدمنا ، فان الشاعر ينحي منحى الاولياء الذين يحملون مأساة الشعب ويتفردون ويعتزلون لينزّل عليهم الرأي فيها او تفتح لهم كوى الغيب ، يعلنونه للشعب. وكما سجد موسى في جبل طور وانقطع المسيح يصارع الشيطان الذي بسط له ملك العالم ، أي غره بتحقيق مكاسبه الذاتية وكما اعتزل النبي في غار حراء ، هكذا ترى الشاعر منقطعاً في عزلته ، لا كرهاً للشعب ، بل ايغالاً في تحسس مأساته ومعاناة مصيره ، يعود اليه بعد حين بالرؤيا او البشارة واليقين . وهذه التجربة الصوفية الخالصة قد تعبر على ضمير القارىء ، فلا يفطن لها ، لانها صادرة عن انفعال مثقف لطيف بمشكلة الحق والباطل وعبودية الشعب وتحرره ، وفقاً للمعاناة الانسانية الكلية الشاملة التي أثرت في

العصور . ومعظم القراء يؤثرون المعاني الخطابية ، الاستعراضيــة ، الصياحة ، والثورة الرعناء والشعارات والشتائم ، ولا يحفلون بهذا المنحى الوجداني العميق حيث تتطهر النفس وتتسع حتى تتحمل معاناتها لمشكلة الامة ومعاناة الانسان لها في ارقى مستوى روحي عرفه خلال التاريخ . وتأكيد الشاعر على العزلة يطلع من ملامحه المتقبضة ملامح الانبياء وكأنهم المعبر او صله الوصل بين الارض والسماء ، لذلــك لازمتهم الصفه الخارقة واحدقت بهم هالة القداسة . وليس من تبتل وتكرس لخلاص الشعب ، كمن ابتزه وخادعه واسترقّ آلافا كثيرة منه لتحقيق مطامح ابيه ، وسياده حمقاء باطلــة معاديه للحقيقة والغبطــة الفعلية .

ففي هذا المقطع اذن ، تعبير عن السكون المطلق ، المبحر لا يقطع بحارا ولا يعاني شيئا فــي اليم والجو . وهذا السكون هـــو سكــون الصفاء النفسي الذي يطلبه القديسون لتتجلى لهم الحقيقه ، الا ان الحقيقة تظل ملتبسة ، مغتشية يغرر سرابها بالشاعر :

شبح يبحر في البحران
يغويــه السراب
فلتفيه في ضباب التيغ
أشباح يغشيها الضباب

فبالرغم من انقطاعه وتبتله للحقيقة ، يقتل رغابه وشهوانــــه ويجوع ويصوم فان الحقيقة لا تسفر له بل تتراءى له اشباحها المغررة، ضبابا لا يعين ولا يهتدي الى خلاص أمته وتحريرها من عبودية ذاتها وعبودية الآخرين عليها . والتجربة ما زالت تنساق في سياق داخلي، صوفي ، الا انه لا يلتزم الصوفية الغيبية المنتشية بافيون الوهـــم لتشيح عن الواقع ، بل الصوفية القومية ، اذا جاز التعبير ، تنجي الشعب من محنته وتعيد له كرامة الحياة . وليس اعتزال الشاعر ، ثمة ، مثيلا لاعتزال هكتور او عنترة اللذين تغلب فيهما المآرب الذاتي حينا ، على القضية العامة ، بل انه نوع من المجاهدة لامانة النفس الفردية ومشاهدتها وهي تبعث في نفوس الآخرين بل في نفس الامة . ولعل مدمني الحماس والخطابة يخذلون عندما يطالعون هذه التجربة لان معانيها منطفئة ، هادئة ، لا تجهض حماسهم القومي بترهـــات الفخر والفتوة ، وقد لا يسيغها ويصحب الشاعر عليها الا القـــارىء المثقف الهادىء الذي ينبسط امامه بساط الوجود والتاريخ، فيشاهد بحدقة المتأمل الرزين ، الذي لا يطرب ولا يثب ولا يأخذه الطيش ، بل انه لا يقنع ولا يصيخ الا للمعاناة الجدية المسؤولة . وفي تلك العزلة صارع فروخ الجن وقطعان الضواري ، كما صارع المسيح الشيطان ، أي انه انتصر على قوى الشر في نفسه وظلت الحيرة تأكله ، لايبين له يقين الا يقين الرعب اذا خيل اليه انه خالق نفسه بنفسه وانه ليس ثمة عناية تحضن الكون وتسهر عليه ، العبث يسيّره والصدفــة ، لا اله يعاقب الظالم ويشلّ يديه ولا قدرة فيما وراء الانسان تنتظم الكون وتهبه العقل والعدالة . هذا عالم ترك فيه الانسان لقدره :

كنت فيه الخالق المخلوق
يرغي يتلوّى ويهيم
كل ما في الخالق المخلوق
من عار قديم

الانسان هو « الخالق والمخلوق » وجد في مفازة العالم تحــدق به الجن والضواري ، يخبط في دماء مصيره لا مسعف له على كيــد الاعداء ورفع ايديهم . والحياة مسيّرة بقوة عمياء ، بالعار العريــق الذي تسلسل في صلب البشرية منذ القدم . وهنا يوفي الشاعـــر العربي الى اليأس الوجودي المطلق ، او اليأس الماورائي ، ويتوهم انه لا خلاص للانسان من بئر مصيره اذ لا خير يعضده او انه ثمة خير مخذول ، مرذول والشر يضرب بساعد القوة والبطش . ولعله تحدق في عزلته تلك ، بتاريخ الانسانية ، فوجد انه تاريخ القاتل ، المتلطخ بدم اخيه . تلك رؤيا ادركها وصمت دونها ، فاتلفت اعصابه ومصت دمه ، ولم تقو العبارة على الافصاح عنها ، فاختنقت عنها بالذعـــر والرعب ، فالانسان العربي عجن من طينة قديمة ، هرمــة ، لا خلاص له ولا نهوض ، وعندما كان ابن الارض البتول في صحرائه فــــاد فتوح البطولة وجلا صدر العالم :

يوم كان الصبح ينهلّ على ارض بتول
فجرت فيها سيولا وسيول
من خيول الفتح
رؤيا التمعت في كلمة

وتتولى الشاعر لحظة من الندم ، يتحسر على ضياع عمــره اثر صباح شاحب ، كاذب ، شمسه تطلع من عند المغيب ، ويتمنى لو انه ذهب مذهب الآخرين ، فابتنى لذاته قصرا شامخا وخادع ذاتــه عن اليقين وعاش عيشة اللهو والترف ، مشيحا عن حقيقة الواقــع المتبرج كالمرأة القبيحة الهرمة . ويلجأ الى الخمرة ليصرع وعيه ، فاذا الرغاب التي صارعها وتوهم انه صارعها ما زالت تقيم فيه ، بعثــت مثل الشرر ، الا ان الخمــرة لا تنجيه ، ان هي الا ومضة تعيره طبعا زائفا يصحــو منه وهــو يشعــر بالهـلاك :

ومضة تمضي بطبع من طباعي مستعار
ينجلي عن هالك يقطر من اجفانه جمر دعار

وفي نهاية القصيدة تراه وقد انهمرت عليه الرؤيا الاخرى ، انها مثل كابوس ينعكس عليه الحلم الباطني الذي يلهج به ، حيث يتجلى الفارس العربي الواثق من ذاته ، لا يكتفي بالخطب والحماس والتآويل اللفظية ولا يتربر بمبررات السياسة ،لا يعقد هدنة ، ليعقبهـا بهدنة اخرى ، لا يتهدد ولا يتوعد بل تراه يقاتل ، انه فارس الفعل العاري المطلق ، ما يبتغيه يحققه وهو سيد قدره ونفسه . وفي هذه المرحلة تتجلى الصفة الرؤيوية الخالصة كما في رؤيا يوحنا :

في جبال من كوابيس التخلي والسهاد
حيث حطت بومة خرساء تجترّ السواد
الصدى والظل والدمع جماد
يتجلى فارس غضّ منيع
فارس يمسح غصات الحزانى والجياع
سيفه يهزج في وهج الصراع
ويعرّي الفعل من اسم وظرف وقناع

ذاك هو اليقين الذي نمت اليه القصيدة ، يبصره الشاعـــر بحدقة الامل والغد والخيال المبدع فكأن المعاناة اوفت الى ذروة التوحيد بين الانفعال والخيال . انه الشعر هكذا ولادة ومخاض وألـــم ، وسقوط ونهوض ، صوته يهمس همسا ويتحشرج ورؤياه تنداح مـــن اعماق الظلمة كذاكرة الغريق ، لا يصيح ولا يعول ، وانما يصحـــب الانسان في تحريه عن حقيقة ذاته من خلال حقيقة الكون حيث يتحد البعد الذاتي والقومي والوجودي والماورائي ، فتبلغ التجربة الكلية والشمول ، تطل بأحداق الرمز اللطيف الخفر وتحتضن معاناة الاولياء الذيـن تعقد في نفوسهم انشوطة الحياة كلها ، فينبري لهـم اله من ذاتهم ينقذهم ولو الى حين . اما شعراء اللفظة المخدوعة والالـــوان المبهرجة والحماس والتعاويذ ، شعراء الجمالية والموت ، فقدخصيت بهم فحولة الكلمة وتخنثت كمعظم ابناء هذا الجيل ، وانما الشاعـــر هو النبي والفاتح .

ايلي حاوي